سلسلة #عيش_مع_اللاجئين (١)
من مجموعة #عيش_مع_سوريا

فتاة الوحل

زرقاء العينين
"غزل"

بقلم و تعبير و أشجان
د.محمد إقبال النعيمي
مؤسس الرابطة الإغاثية للاجئين السوريين

فتاة_الوحل .. زرقاء العينين «غزل»
بقلم .. د.محمد النعيمي

« تستحق القراءة و التأمل و النشر »

تمر الأيام و تتوالى الفصول .. انتهى الصيف و ودعنا الخريف و أقبل الشتاء بسرعة .. السماء تلبدت بالغيوم و الأمطار هطلت هنا و هناك من العالم ..
لكن ما إن انجلت العتمة و أشرق ذلك الصباح بعد ليلة ماطرة .. حتى ظهرت و انتشرت صورة طفل تكاد لا تظهر ملامحه بعد أن غطاه الوحل من رأسه حتى قدميه و الطين يغمر جسمه الصغير .. ناظرا بعيون مشوشة .. يسير يمنة و يسرة .. و كأنه يهرب من مجهول أو قادم على مجهول ..

من هذا الطفل و أين هو و لماذا يهيم على وجهه هكذا !!
بدأت الصورة بالانتشار أكثر في المواقع و الصحف .. الكل أجمع أنه طفل سوري .. نعم هطلت الأمطار على الشام عموما في تلك الليلة .. و تسارع الناس بالتخمين عن مكانه .. البعض قال لعله في مخيم الزعتري بالأردن .. و الأكثرية قالت لا إنه في مخيم عرسال في لبنان .. بل و ربما عبر الحدود بمفرده هاربا من #سوريا..
بدأت المطالبات بالبحث عنه و معرفة خبره ..

و من قدر الله و حكمته أن فريق عمل الرابطة الإغاثية للاجئين السوريين بإشراف الدكتور محمد النعيمي كان في جولته الدورية داخل سوريا ..
و هنا يكمل الدكتور محمد الحكاية قائلا ..
استيقظت ذلك الصباح الممطر و رأيت الصورة و تأثرت بها جدا .. و قررت من حينها أن أعمل كل ما أستطيع لأعرف من ذلك الطفل او ربما أحاول أن أجده .. ثم تأكد قراري بكمية الرسائل و الأسئلة و الطلبات التي انهالت علينا تريد منا ذلك .. دققت في الصور كثيرا .. ملامح الطفل ليست واضحة تماما .. و لا حتى لون عينيه !!
لكن شجر الزيتون حوله حرك داخلي شعورا أنه قريب مني .. نعم ربما هو هنا داخل سوريا و ليس خارجها كما قيل ..
لكن من أين أبدأ و ماذا أصنع و المخيمات تحيط بي بالعشرات من كل جانب .. و الأطفال بمئات الآلاف في هذه الخيم الممتدة عشرات الأميال على الحدود السورية التركية ..
امتطيت دراجتي النارية التي اشتريتها قبل يومين .. فهي أسهل لي بالحركة بين المخيمات .. و بدأت بالنظر إلى هؤلاء الاطفال من بعد .. لعلي ألمح ذلك الطفل أو هو يراني أبحث عنه فيأتيني قائلا .. انا هون عمو أنا طفل الوحل الذي تبحث عنه ..

لكن لم و لن أجده هكذا .. بل عوضني الله بأن تعرفت على العديد من الأسر و العوائل و المرضى الذين قابلتهم صدفة أثناء بحثي .. و قمنا بمساعدتهم بما نستطيع .. فرحت جدا بذلك .. صحيح أني و بعد مرور يومين من البحث لم أجد طفل الوحل .. لكن ما قمنا به بسببه الشيء العظيم و خاصة و أنت ترى دموع الفرح و تلك الدعوات الجميلة تشنف مسامعك..

في ليلة اليوم الثالث لم أستطع النوم و فكرت كثيرا ماذا أصنع من الغد ..

و بالفعل انطلقت صباحا على دراجتي و معي صورة طفل الوحل بيدي..فلا بد من أن أحدا التقطها و لو صدفة..و تذكرت ذلك الدعاء العظيم (اللهم لاسهل الا ما جعلته سهلا.. و أنت تجعل الحزن اذا شئت سهلا)

كنت أشعر بداخلي أن هناك شيئا ما سيحصل معي هذا النهار .. فهذه عادتي و شخصيتي أرجح الأمل و التفاؤل مهما كانت الظروف ..

و هنا كانت المفاجأة .. لم تمض ساعات إلا و تعرف أحد ساكني المخيمات على الصورة .. و قال نعم أعرف هذا الطفل.. بل و هنا كانت الصدمة لنا جميعا !!!
إنها #غزل .. هذا ليس مجرد طفل صغير بل هي فتاة يتيمة اسمها #غزل .. ارتعش جسمي حينما سمعت ذلك .. اغرورقت أعيني بلا شعور ..

لكن ما زال الشك داخلي ربما أنها ليست هي .. أيعقل أنها فتاة .. أيعقل أنها يتيمة ..

أرجوك خذني لها الآن .. ترجلت عن دراجتي .. و أمسكت يد الرجل و نحن نمشي فوق الوحل بين الخيم و الاطفال من حولنا و النساء تنظر لنا من ثقوب خيمها المهترئة .. و كأننا في محفل دولي أو نمشي على سجادة حمراء في أحد المهرجانات .. منظر مهيب لن أنساه في حياتي .. كيف لا و ربما أني وجدت طفل الوحل ..
لا بل من تلك اللحظة سميتها #فتاة_الوحل إن كانت هي فعلا ..
تسارعت دقات قلبي مع خطواتي و بدأت أنفاسي تعلو .. و نحن نقترب رويدا من تلك الخيمة المتطرفة الموحلة هي أيضا في جانب المخيم.. حيث هناك فتاة الوحل #غزل .. أحسست الطريق لها طويلا جدا ..
و أخيرا وصلنا .. تركت يد الرجل بلا شعور و أنا أتمتم بشكره ..
هرولت نحو الخيمة .. وينها غزل .. هون غزل .. بدي شوف غزل ..
أهلين عمو .. أنا أخت غزل .. غزل مو هون هلأ .. نظرت لها ..
نعم بالفعل تشبهها .. أقصد تشبه فتاة الوحل لكنها ليست هي..هذه اكبر منها .. سألتها أنت أخت غزل .. أخرجت صورتها من جيبي..
هذي أختك !! أومأت برأسها نعم .. ضممتها لصدري و تنفست بعدها الصعداء ..
و أخيرا وجدت فتاة الوحل #غزل ..
لكن أين هي .. عاد الخوف لداخلي .. أخشى أنها بعيدة أو لا سمح الله حصل لها شيء ..
نظرت حولي حينها .. و قد تجمع الصغار و الكبار و أنا لم أشعر بهم و بما أقوله و أفعله من فرحتي ..

صرخ الجميع .. يلا شوفوا وين غزل ..
.. أجابت أختها ذات الثمانية أعوام التي استقبلتني .. أكيد هي عبتلعب مع رفيقتها بتول عند خيمتهم..

الثواني تمر علي و كأنها أيام .. أنظر من حولي .. أتلفت يمينا و يسارا .. هتف الجميع .. لقينا غزل .. وصلت غزل .. ها هي غزل. كبرنا و هللنا و جسمي يرتعش .. يا رباه .. نعم رأيت غزل من بعيد و هي تهرول و الأطفال من حولها و كأنهم يزفوها في أحلى موكب.. ضحكت عندما اقتربت منا و دموع الفرح بعيوننا..ما زالت في وحلها الذي يغطيها .. مع أنها غيرت ملابسها التي في الصورة .. أخبروها أن هناك دكتور أتى لرؤيتها و يبحث عنها .. اتجهت نحو أختها .. يلا غسليللي وجهي بسرعة .. تريد أن تقابلني و هي نظيفة .. سبحان الله .. أي فتاة وحل أنت و أي يتيمة أرى أمامي و أي غزل بحثت عنها حتى وجدتها .. لم أصبر حتى تنتهي من غسيلها و أختها تصب الماء البارد على وجهها و قطرات المطر بدأت من جديد تقطر علينا و كأن السماء دمعت بكاء و فرحا لنا.. أقبلت عليها و ضممتها بقوة و حملتها على أذرعي للاعلى و أنا أدور بها ..
آااه يا غزل ماذا فعلت بنا كم بحثت عنك .. بل العالم كله يبحث عنك .. نعم إنها فتاة الوحل التي في الصورة .. لكن هذه المرة اتضحت ملامحها و ظهر جمالها .. بل و تكشفت عيونها الزرقاء اللامعة و شعرها الأشقر الذهبي ..

أعطيتها آخر دمية بقيت معي في حقيبتي على دراجتي..بعد أن وزعنا الدمى على الأطفال أثناء بحثنا ..
هنا نسيت كل من حولي و لم أعد أرى سوى #غزل أمامي و بين يدي .. سألتها كثيرا بل كان حوارا ليس كأي حوار عالمي .. حوار مع طفلة استشهد والدها في حماة منذ عامين تقريبا .. أمها مريضة .. لديها أخوات صغار ..
قصة طويلة جدا من العناء و التعب و الجوع ..
كانت تخفي مأساتها في تلك الابتسامة الناعمة .. و كنت أخفي دموعي معها.
لن أستطيع التعبير عما قالته لي غزل .. عيونها الزرقاء الجميلة كانت تحكي لي كل شيء .. و كأني أرى بهما تلبد تلك السماء الزرقاء التي هطلت عليها تلك الليلة و أوحلتها .. بل ربما هيجان المحيطات الزرقاء التي عصفت بها و بأسرتها في ظلم أحداث الشام ..
لكني وجدتها .. و لن اتخلى عنها .. سجلت معها مقطعا مصورا .. سألتها هل تحب من سيشاهدك .. قال نعم ثم استدركت لا ..
قلت لماذا .. قالت بدي أرجع على بيتنا في ريف حماة .. و لم تعلم اليتيمة ان منزلهم اصبح سرابا بعد ان دمرته طائرات ذلك النظام الحاقد الشيطاني ..

USAID

قلتلها .. قولي لهم ساعدوني .. أجابت بصوت يهز الكون .. أخجل .. هنا صمت الجميع .. قبلتها و أنهيت حواري المصور معها ..
أعلم أني أطلت عليكم مع شدة اختصاري ..

لكن فتاة الوحل أو #غزل .. ماهي إلا نموذج شاء الله أن تنتشر صورتها .. ليعلم الكون مجددا إن أراد أن يعلم !!
حجم المأساة التي تعيشها غزل و مثيلاتها من الأيتام و الأطفال في بلاد الشام .. سوريا ..

وجدنا غزل و عائلتها و مثلها الآلاف..
لكن هل سنجد من يرحم حالهم و يكون معهم و يساعد في عودتهم لمنازلهم و إنهاء معاناتهم !!

أعلم أن الإجابة أعظم بكثير من مجرد سؤالي البريء !!

ألقَاكُم بِخَير ..

بقلم و تعبير و أشجان

د.محمد إقبال النعيمي

مؤسس الرابطة الإغاثية للاجئين السوريين

00966/557056627

@DR_M_IKBAL